ظل رَجُل!

(١)

أشرفت على عامها الأربعين. رحل الأب. ورحلت الأم، وتزوج جميع الإخوة والأخوات، وأنجبوا «صبيان وبنات».

ولم يبق في البيت الكبير إلا هي وحيدة مع نفسها..

تشغل وظيفة محترمة بإحدى شركات الاستثمار بعد تخرجها في كلية التجارة.

تنفق ببذخ على أولاد وبنات إخوتها وأخواتها، ولم تبخل عليهم بشيء، ولم تعمل حسابًا للزمن..

وهي على اتصال دائم بأهلها، ولا يمر يوم دون مقابلتهم أو الاتصال بهم هاتفيًا.

تَقَدّم لخطبتها زميل بنفس الشركة بدرجة مدير عام، ولكن هناك فارقًا كبيرًا في السن، أما من حيث الخُلق والطباع فهي فتاة رقيقة مهندمة محبوبة لدى جميع الزملاء والزميلات، أما هو فعلى

النقيض تمامًا.

رفضته بشدة ولن تفصح لأحد عن السبب من وجهة نظرها، مع أنها وهي في هذه السن لا بد أن تُقدم بعض التنازلات.

نعم رفضته بشدة كما رفضت الكثيرين من قبله رغم تمتع بعضهم بمزايا غير متوفرة فيه.

راح يتقرّب منها ويتودّد إليها بشتى الطرق، ولكن دون جدوى أو أدنى استجابةٍ منها، وعندما فشلت جميع محاولاته قرر أن يفاجئها بالزيارة بمنزلها حتي تكون هناك فرصة أكبر للتفاهم والمصارحة والتعبير عن شعوره نحوها.

وبعد أن توصّل إلى العنوان، توجّه إلى منزلها ذات مساء، وفي ساعة متأخرة من الليل..

دق جرس الباب وفتحت الشُّرّاعة، فوجدته أمامها ولم تعرف كيف تتصرّف ودون أدنى تفكير فتحت له الباب.

الحق أن المفاجأة أذهلتها، الساعة قاربت على منتصف الليل، وكيف تسمح لنفسها بمقابلة هذا الشخص بالذات في منزلها وهي بمفردها!.

كاد وجهه يلامس وجهها فابتعدت عنه نحو الداخل، فلحقها

دون استئذان..

فازداد خوفها، ولكنها أفاقت إلى نفسها ولجأت إلى استخدام العقل للخروج من هذا المأزق.

(٢)

ألقى بجسده البدين المترهل على أول مقعد بالصالة الكبيرة الفخمة.. اكتشفت أنه مخمور لدرجة الثمالة.. وكان الشرر يتطاير من عينيه الحمراوين.. كما اكتشفت أنها مازالت بقميص النوم.. يا له من كابوسٍ ملعون.. تركتهُ ومرقت إلى غرفة النوم، ارتدت «روب» لتخفي به مفاتنها..

سألته بابتسامة مصطنعة عما أتى به إليها في هذه الساعة، فأجابها بمنتهى الوقاحة:

- هفِّني المزاج يا ست هانم!

وبدأ خوفها يتضاعف منه.. ولكنها كانت تداري خوفها.

أشعل سيجارة وشرع يدخّن بشراهة أثارت اشمئزازها وسخطها.. ضاق صدرها عندما ازدحمت الصالة بسحب الدخان، ففتحت باب الشقة على مصراعيه متعللة بخروج الدخان، وتمنّت لو تطرده هو الآخر خارجًا..

الحق أنه عندما شَعر بضيقها الشديد لوجوده، وأن الوقت

غير مناسب للحديث، بالإضافة إلى أنه لا يستطيع التركيز نَهَض واقفًا بدون مقدمات وبادر بالانصراف متمنيًا لها نومًا هادئًا وأحلامًا سعيدة!

تنفّست الصعداء وهي تشيعه بنظرات مُتَفَرِّسَةٍ طالبةً منه عدم تكرار مثل هذه الزيارة المشبوهة، وإلا استدعت له البوليس!

فغادرها ولم ينطق بحرفٍ واحد.. وكان طبيعيًا أن يفارقها النوم في هذه الليلة.

وعادت بها الذاكرة إلى الأيام الخالية.. أيام أن كانت فتاة صغيرة وجميلة ويتهافت عليها العرسان، ويتسابقون للوصول إلى قلبها، وكانت ترفضهم لأتفه الأسباب؛ هذا طويل، وهذا قصير، وذاك نحيف، وذاك بدين، هذا من أسرة فقيرة، وهذا مستواه الاجتماعي لا يليق..

وها هو القدر يسخر منها أخيرًا ويبعث لها بهذا السكِّير التافه!

لعنت الزمن ألف مرة! وراحت تندم وتندم وتنعي حظها العاثر.

(٣)

استدعاها في صباح اليوم التالي فلم يجدها بمكتبها، وعَلِم أنها لم تحضر هذا اليوم، ولما أرادت الزميلات الاطمئنان عليها حيث إنها غابت بدون سابق إنذار، وهذه ليست عادتها، اتصلن بها هاتفيًا وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا فوجدنها نائمة كما اتضح من صوتها عندما ردّت عليهن، فسألتها زميلتها إيمان:

- إيه الحكاية يا مها؟! إنت لسة نايمة؟؟.. صحّي النوم.

فأجابتها قائلة:

- راحت عليّا نومة، مجاليش نوم طول الليل.

ولما استفسرت إيمان عن السبب، أجابت بأنها سوف تحكي لها بالتفصيل غدًا ما حدث لها البارحة وأدى إلى غيابها عن العمل هذا اليوم.

وتبادلتا التحية ووضعت السماعة، وحاولت أن تعاود نومها، ولكن هيهات.. فقد كان الأرق أقوى منها.

ولم تستطع إيمان الصبر حتى اليوم التالي دون الاطمئنان عليها، فتوجهت إليها فور الانصراف من العمل، وكانت مفاجأة جميلة بالنسبة لمها التي فرحت بها كثيرًا، وكانت في منتهى السعادة، واستضافتها أحسن استضافة بعد تبادل القبلات.

وراحت مها تقص عليها بالتفصيل الممل كل ما حدث في ليلة البارحة، وكانت إيمان تستمع إليها بكل دهشة وذهول.. هل كل هذا يحدث من محسن، وفي منتصف الليل؟!.. حقًا إنه مجنون!

ورن جرس الباب، وكان القادم هو محسن بعينه..

وكانت إيمان تهم بالانصراف حيث إنها قد تأخرت عن الأولاد، ولكن مها غمزت لها ألا تتركها حتى تعرف أخرتها مع هذا الرجل!

(٤)

وسط ذهولها ودهشة ايمان علل حضوره بالاطمئنان عليها نظرًا لغيابها عن العمل، ولكنه شك في معرفة إيمان بما حدث.

وبجرأة شديدة قطعت إيمان الصمت موجهةً الحديث إلى محسن قائلة بحدّة:

- ادخل في الموضوع على طول.. إنت عايز منها إيه بالظبط؟

فذُهل هو الآخر لدخول إيمان في الموضوع بهذه الجرأة، فأجابها بهدوء قاتل:

- يا ست بصراحة أنا طالب القرب منها. وإنتي إيه اللي مزعلك؟!

- واللي يطلب القرب يطلبه من العروسة نفسها؟!.

ثم استطردت بعصبية:

- هي ملهاش رجالة يا أستاذ محسن؟

- والله ما أعرف حد منهم.

- اسأل يا أخي، هي الحكاية سايبة!

وأتت مها من المطبخ حيث كانت تعد التحية، ورأت إيمان منفعلة جدًا أثناء الحديث مع محسن في موضوعها، واستطردت إيمان موجهة حديثها إلى مها:

- اتفضلي يا ستي، جاي يطلب القرب منك بسلامته، تصدقي؟! ، أنا في الحقيقة مكانش ليا إني أتدخل في هذا الموضوع، ولكن الظروف فرضت عليا ده.. إيه رأيك يا ستي موافقة؟.. عرسان أخر زمن!.

ولكن مها لم ترد بكلمة واحدة، أما عن محسن فقد هَمَّ بالانصراف بعد أن أخذ التحية طالبًا من مها أن تُحدّد له موعدًا للزيارة القادمة في حضور من يهمهم أمرها، ولكنها طلبت منه إرجاء هذه الزيارة إلى أن تفكر هي أولًا في هذا الأمر..

ولقي هذا الرد استحسانًا من إيمان، ولكن هل هي جادة وتطلب مهلة للتفكير فعلًا؟

(٥)

طار الخبر إلى الشركة بسرعة الصاروخ، في اليوم التالي أخذ الزملاء والزميلات يتهامسون، وكانت هي في منتهى الحرج منهم، فهل هي جادة في التفكير فعلًا؟

الحق أن إخوتها وأخواتها، وكل من يهمه الأمر يؤيدون زواجها من هذا الشخص أو من غيره، حيث إن فُرص زواجها بدأت في الاضمحلال، أما عواجيز العائلة فكانوا يقولون لها:

- وماله يا بنتي مهو راجل ملو هدومه أهو.. وعلى رأي المثل (ضل راجل ولا ضل حيطة).

وكان الجميع يطاردونها بمثل هذه الأقوال البالية، ولكن لماذا يتدخلون في حياتها الخاصة؟.. فهل هي عالة على أحد منهم؟.. بالعكس فهي مجاملة جدًا وخيرها عليهم، ولا يفوتها واجب.

وسألت نفسها: لماذا لا تفكر في هذا الأمر جدية؟ احتمال الرجل بعد الزواج يعقل عندما تستقر حياته الاجتماعية ويصبح مسئولاً عن أسرة.

وفي المساء رن جرس التليفون في منزلها، وكان شقيقها الأكبر.. ربما تكون مكالمة عادية مثل أية مرة.

ولكنها في هذا المساء لم تكن مكالمة عادية.

- ألو.. مها.. مساء الخير.. عاملة إيه؟
- الحمد لله، كله تمام.
- مال صوتك متغير كدة؟
- أبدًا مفيش.
- شوفي يا ستي فيه خبر سعيد.. مفاجأة سارة.
- خير إن شاء الله؟.

ثم استطرد بضحكة عالية هزت أسلاك الهاتف:

- عريس.

فقالت متجاهلة:

- عريس؟.. معقول؟.. (قال بعد ما شاب ودوه الكُتَّاب).

ولما كان الأخ الأكبر من مؤيدي زواجها بأي شكل، قال وكأنه يهوِّن عليها المفاجأة:

- وفيها إيه يا مها؟.. هو الزواج عيب؟! الزواج نصف الدين يا بنتي، وإنتي ليه تقضى حياتك وحيدة؟ ومين يعرف الظروف؟

وبعد تنهيدة طويلة قالت:

- وإنت تعرفه كويس؟

- والله هو بيقول إنه زميلك في الشغل واسمه محسن المصري، وطبعًا إنتي عارفة الباقي.

ثم ضحك ضحكته المميزة، ثم سألها مرة ثانية:

- وإنتي إيه رأيك يا ست الكل؟

فتلعثمت قليلًا، ثم أجابت:

- والله يا شوقي يا أخويا هو لمح ليا بذلك في حضور زميلة ليا، وأنا رفضت، أو بمعنى أصح طلبت منه مهلة للتفكير.

لم تحاول أن تشوه صورته أمام أخيها حتى لا يرفضه بالمرة وتخسر أخر فرصة أمامها..

ورنت في أذنيها كلمات الأقارب (وماله يا أختي مهو راجل ملو هدومه وعلى رأي المثل ضل راجل ولا ضل حيطة).

وبعد هنيهة صمت قال لها شوقي:

- خلينا ناخد فرصة أكتر.. عمومًا هو هيطلبني الليلة عشان ياخد مني رد وأنا شايفك لسة مترددة.

- مفيش مانع يدينا مهلة يوم أو اتنين.

وبعد يومين بالضبط حضر أهل العريس لتحديد موعد الخطوبة، ورنت الزغاريد في أرجاء الشقة.

وربنا يتمم بخير..